

VOYAGE EN GRÈCE 1947

BERNARD GUYON

رحلة في اليونان عام ١٩٤٧

الأربعاء ١٧ : الرحيل إلى ديلوس . ها نحن أولاء على ظهر السفينة الخلفى نتطلع لأول مرة إلى منظر أنيكا ، ونضع أخيراً هذه الأسماء العظيمة على مكانها من الأرض : الأكروبول ، ليكابيت ، البرنس ، البنتيك ، القمم الايجلية Monts Egaléens ، سلامين . أشار لي شخص إلى ذلك المضيق الصغير الذى بدا فيه لأول مرة انتصار الحرية على الاستبداد فى مظهر متواضع ولكن فى معركة حاسمة . وعند مخرج الميناء يتسع المنظر ، وحين تبرز عند الأفق دور أثينا المنبسطة على الجبال نعم النظر فى شبه جزيرة أنيكا الطويل ، ثم نلمح على بعد أول جزر السيكلاد Cyclades . ذهبت أنثر بضع لحظات مع الأستاذ ج . . . الذى لا يمل إلقاء الخطب لمن يريد سماعها . إنه يسرد على سنواته التى قضاها فى أمريكا ، ويؤكد الأهمية التى يعلقها الأمريكيون على الدين ، ويوضح بهذا معارضتهم القوية للشويعية السوفيتية وبالتالي موقفهم الواضح فى صف الحكومة اليونانية الحالية ضد قوات المقاومة . إنه يكلمنى ، وبالطبع يكلمنى فى هذه المسألة خاصة . هذا الرجل يحب اليونانيين حقاً كما لو كان أحدهم . وقد جاء ، كما قال لى ، فى مهمة مراسلة جريدة المساء بيروكسل . ولم يكتف بمحاولة النظر فى الموقف نظراً جلياً ، وإنما أراد ، وقد كوّن لنفسه رأياً ، أن يجعل من يلقاه من اليونانيين ، يشاطره هذا الرأى

هذا المقال كتب خاصة لـ « الكاتب المصرى » .

كتبت هذه الصفحات فى آخر الصيف الماضى بمناسبة رحلة قام بها الكاتب فى اليونان . وقد دبرت له الظروف الملائمة مقابلات ومخاطبات مثيرة . فدون انطباعاته وذكرياته فى الحال فى يوميات رحلته ، وتفضل فأرسل إلينا بعض أجزاءها . وعلى القارىء ألا يظن أنه سيجد هنا دراسة عميقة لحال الشعب اليونانى البائس ، وإنما سيجد شهادة نزيفة ، شهادة تساعد على فهم حالة معقدة ، تصورها لنا شهوات جامحة لاتبلى الحقيقة . (هيئة التحرير .)

الذى نستطيع التنبؤ إذا عرفنا أن صاحبه بلجيكي من أصل كاثوليكي وأن ميوله حرة . ومن ناحية أخرى ، لم يشق على هذا المؤرخ أن يكتشف في هذا الشأن أخطاء من الجانبين ، كما يحدث في كل عمل إنساني . وقد أخذ على نفسه اذن أن يبسط ذلك لاناس دوى شهوة ، اناس أضمر بعضهم لبعض بغصاً قاتلاً . واعترف لي بصراحة ، أنه قد أخفق في مجهوداته من أجل التوفيق ، واعتبر الموقف مؤسأ . وكان هو أول من كلنى عن « حوادث ديسمبر » . كنت أجهل ذلك الشهر الذى يعتبر شهراً رئيسياً في تاريخ اليونان المعاصر . فهو بمثابة هوة : كان ذلك في سنة ١٩٤٤ بعد التحرير بقليل . وكانت في الحكم حكومة ائتلاف وطنى . فإذا حدث بالضبط ؟ ذلك أمر تصعب معرفته . فهل المظاهرات مدبرة ؟ هل هى محاولة ثورة من جانب اليسار ؟ أهو انقلاب من ناحية اليمين ؟ المؤكد هو أن الدم اليونانى قد جرى غزيراً طيلة أيام الحرب الأهلية وأن القوة بقيت في الحكم ، أى إن القوة صارت إلى حكومه من اليمين لم يكن لها هم منذ ذلك الحين إلا أن تقتل الثورة . فانهجت سياسة انتقام ونفى وتفتيش بوليسى . وبينما كان أكثر أولئك المنفيين أو المشردين من الماكى^(١) ذهى الميول الشيوعية ، إذا الذين دُعا إلى الحكم رجال أشداء ألفتيناهم - كما لو كان ذلك مصادفة - من بين مشاهير المتعاونين مع الألمان . ومن هنا نشأت الحرب الأهلية . وقد قررت عناصر اليسار أن ينظم حكومة ثورية تعتمد على جماعات مسلحة تحتل بعض المناطق الجبلية وخاصة في الشمال في منطقة البارناس وفي المنطقة الجبلية في الوسط أيضاً في البلوبونيز . وأرادت الحكومة الأمريكية أن تقف هذه الحرب الأهلية فأرغمت أخيراً حكومة تسالداريس ، وهى حكومة من أقصى اليمين ، على الاستقالة ، ودفعت إلى الحكم رجالاً من الأحرار هو سوفوليس ، فأصدر في الحال عفواً سياسياً ظهر أنه - مع الألمان - دواء مسكن لحسب ولم يؤد إلى النتائج المرجوة منه .

أثينا نوه السبت . ٢ : علينا أن نستوفى أوراقنا لدى الشرطة . أخذنا موعداً مع ب . . . في أمونيا . وقبل أن أصدق في الترام الذى يوصل إليها

(١) الماكى Maquis اسم يطلق على جماعات المقاومة للاحتلال النازى (الترجم) .

سمحت لنفسى بشئ^١ من الترف ، فاشترت جريدة إذ أردت أن أختبر في اللغة اليونانية الحديثة معرفتي باللغة اليونانية القديمة . ولما كنا قد قابلنا أسس على الباخرة صحفيا قال لنا إنه يعمل بجريدة حرة مؤيدة لسوفوليس اسمها «إليتاريا» ، فقد طلبت ذلك الاسم من البائع فأجابني أنها ليست معه ، واقترح على صحيفة أخرى قال إنها من اللون السياسي نفسه ، وما كاد ب . . . يراني حتى قال لي ، وعلى شفثيه بسمه فيها شئ^٢ من السخرية وشئ^٣ من القلق : إني أهل بشكل واضح جدا جريدة شيوعية (وللجرائد الشيوعية الحق في الظهور) وإحداها تحمل أيضا اسم : إليتاريا في عنوانها (١) فأخفيت بعناية الصحيفة الخطرة . وذهبنا إلى إدارة البوليس ، وهي مكان قذر بعض الشئ^٤ ، سي^٥ النظام بعض الشئ^٦ ، ولكنه لا يزيد في ذلك كثيرا عن مثيله في فرنسا . وقد كلمنا القوم بالفرنسية ، على أن ب . . . يتكلم اليونانية بسهولة . وأنجزوا لنا أوراقنا بظرف فائق وبسرعة مناسبة . ولكن الأمر شديد التعقيد ، فعلينا الحصول على ترخيص بالإقامة ، ثم ترخيص بالخروج . (وكان من الممكن إعطاؤه لنا في الحال) ، ثم (وهنا النقطة الدقيقة) « تراخيص خاصة » للذهاب خارج أئينا . ولم نكن قد صممنا بعد على خطة معينة ، وكنا مترددين بين نزهة في البلوبونيز : أرجوس وألبيا الخ . . . وبين نزهة في دلف Delphes وكانت هذه الرحلة الأخيرة تغرينا كثيرا ولكن كان فيها بعض الأخطار ، لأن قرية دلف في أيدي « الأندرتس » أي المقاومين . وقد دهشنا جدا لأنهم صرحوا لنا بالذهاب إلى دلف . ولا شك أن ذلك كان يصفقنا بجانب وبصفقتنا علماء آثار ، وربما كان مبعثه أيضا الرغبة في الاعتراف أمامنا بأن تلك المنطقة غير خاضعة لسلطان الحكومة . كل شئ^٧ إذن مستوف ، ويمكننا أن ننصرف إلى غير ذلك من الأمور .

السبت ٢٢ : قرنا أخيرا السفر إلى دلف وعدلنا عن زيارة أرجوس وألبيا . لقد سافرت إلى هناك سيارتا أجرة منذ يومين حاملتين بعض الزملاء من المدرسة . وستنتظرنا إحداهما لنعود بها برا إلى أئينا . وسافرنا عن طريق كورينثه وإيتيا Itéa .

(١) ألقى هذا الحق حديثا ، في أكتوبر سنة ١٩٤٧ .

وركبنا القطار دون كبير جهد إلى كورينثه . وتم تفتيش أوراقنا ، وهي مستوفاة بسرعة . هناك عدد كبير من الناس ولكن الجميع يجدون مكانا لهم في هذا القطار المتواضع ذى الدرجة الواحدة . وعند ما ذهبنا لنجلس في ديوان خال ، أشارت لنا فتاة جذابة ، متواضعة في مظهرها ولكنها في الوقت نفسه تفيض حياة ، ودعتنا إلى الجلوس معها . وفهم ب . . . سريعا أنها تسافر وحيدة ، وأنها تريد أن تكون تحت حمايتنا بدلا من أن تكون تحت حماية الجنود الذين يملأون هذا القطار ، وهي هاية غير مطمئنة . وكان يصحبها والدها ، رجل ممتاز وسيم ، وقبّلت الفتاة يده باحترام ثم قبلت وجنتيه في حب عند ما حانت ساعة الرحيل . وهذه الرفيقة الرشيقة ستكلم طول الوقت مع ب . . . حتى كورينثه . وهو نفسه سيلعب دور المحامى يجد كثير مما سيعرضه لبعض السخرية منا . وجاء إلى ديواننا بعض المسافرين وكان شكلهم يثير التساؤل ، ثم فهمنا بعد لأى أنهم فريق من الممثلين وبينهم بضعة جنود توسط أحدهم في ود صدر إحدى زميلاته ، وربما كانوا ذاهبين للترفيه عن الجنود الذين يطاردون الثوار في جبال البرناس . وكان بينهم صبي حديث السن يقوم بدور البهلوان ، وأرانا وهو فخور بعض صور أخذت له أثناء القيام بحركاته . وكانت في المر الخارجي ممثلة الأوبرا تغنى أدوارا عظيمة ويصاحبها مغن طويل سمين يرد عليها وهو يتلوى في بذلته الزرقاء الصارخة . لقد كنا في عربة تيسيس^(١) Théspis . ولم تمنعنا بهجة رفاقنا من أن نتطلع إلى تعرجات الكورينثس الذهاب من ألوزيس إلى ميغار d'Eleusis à Mégare ومن ميغار إلى كورينثه ، ولا من أن تمتع النفس في كل محطة بتناول النوار وعناقيد العنب المليئة التي يعرضها علينا عديد من الباعة الجائلين . وقد تطلعنا إلى مضيق كورينثه وإلى القناة الدقيقة التي تحترقه باهتمام عظيم . ولم يجد الألمان مشقة في سدّها عند رحيلهم . وهي لا تستخدم منذ ذلك الوقت . ولهذا كان لا بد لمن يريد السفر بجرأ إلى باتراس وكورفو من أن يركب أولاً القطار من أثينا إلى كورينثه .

وتناولنا في اليناء بعض الحلوى قبل أن نركب المركب ، ورأينا والقلق

(١) تيسيس شاعر يوناني قديم ، خالق المأساة لدى اليونانيين (المترجم) .

يخامرنا طوائف من الجند تسير في اتجاه رصيف السفر ، وكانوا مزودين بالأسلحة ، ويسيرون في نظام حسن . ليس هناك شك في أنهم سيركبون نفس المركب التي سنستقلها ، إذ ليس هناك سركب أخرى ، وهي ليست كبيرة . فلنسرع إلى اتخاذ أمكنتنا بها . وقد أبعدنا أول الأمر ، ولكننا رأينا عن بعد بعض الصيادين ينقلون المدينين في قوارب صغيرة تسير بالمجاديف حتى توصلهم إلى الباخرة وهي ليست بعيدة وتبدو ثابتة لا تتحرك . ولكن الريح قوية والقوارب ذاهبة آتية تتراقص فوق الأمواج الصاخبة ، وماكدنا نجتاز الحاجز الذي كان يحميها حتى ألفتنا أنفسنا نتدافع في قفزات مخيفة . إنا لا نحس أى ضيق جسماني ، ولكننا في خوف شديد . أملنا بنت صغيرة لا تكف عن رسم علامة الصليب ، وأمها تحتفظ أول الأمر يهدونها ثم لا تلبث أن ترسل صيحات الفزع . وها نحن أولاء بجوار الباخرة . وأصبحتنا أكثر هدوءاً لأنها تحميها ، ولكننا للأسف لا نستطيع الصعود لأن قارباً كبيراً محملاً بالجنود سد طريقنا . قارب يفوق قاربنا كثيراً في الارتفاع ورغم ذلك لا يستطيع راكبه أن يصعدوا إلى الباخرة إلا بمشقة عظيمة فعليهم أن ينتظروا حتى ترفعهم الأمواج إلى الارتفاع المناسب . فإذا نحن صانعون ؟ وأخيراً تصلح الأمور . فيمد لنا سلم منتقل من الباخرة ، ويستطيع الكل أن يصعد بمعجزة ، وحتى حقائبنا لحقت بنا . وأسرعنا نصعد إلى عل لنجد على سلم القيادة ، المكان المفضل لدينا ، وسكنت الريح قليلاً قليلاً . ثم ختم الليل البهيم . ها هي ذى أنوار المدينة تلمع بعيداً . ما زالت القوارب الصغيرة تعمل حول الباخرة . وأخيراً رحلنا . سنكون في إيتيا بعد ثلاث ساعات ، حوالي منتصف الليل .

ورحلة الليل هذه ممتعة . البحر الهادئ يرحبنا وترتفع بجوارنا أغنيات شعبية . السماء مشرقة بالنجوم . وعلى جانبي المضيق تتبسط أنوار القرى . نزلت وب . . . إلى قاع السفينة ، على ما في ذلك من خطر ، لنبحث عن شيء من الغذاء . يا لها من رائحة كريهة ، ويا لها من فوضى في الناس وفي المتاع ! وأخيراً كان صيدنا طيباً فتعشنا خبزاً وجيناً ونيبداً ونحن جلوس على سلمنا .

ولما قاربنا نهاية الرحلة بدأ لغته ضابط شاب الحديث معنا وكان قد أنصت لنا منذ طويل ونحن نتكلم الفرنسية . وبدأ أول الأمر شديد الهجوم « فيم

يفكر مراسلوكم الصحفيون حين يذيعون عن بلدنا مثل هذه الشائعات ؟ لماذا يصموننا بالفاشية ؟ إنهم لا يدرون عمّ يتكلمون . إنهم يشتهرون بنا . وسكوتنا مصير فرنسا أن يبغضها اليونانيون أشد البغض . « وأجناها في هدوء ، فلفتنا نظره إلى أن الصحفيين من عجينة واحدة ، وأنه يندر أن يكون بينهم من يعطى عن الأشياء نظرة مضبوطة لا مبالغة فيها ولا تشويه . وقلنا له أيضاً إن صحف فرنسا لا تتكلم جميعاً عن اليونان بهذه اللهجة ، وأنه لو قرأ « الفيجارو » أو « ليبوك » لوجد فيهما آراء عن الحكومة الحالية اليونانية أقل إثارة من التي سبق له قراءتها . وعند ذلك هدأ وبداناً معه حديثاً طلياً . دهش وقلق حين علم أننا ذاهبون إلى دلف وقال لنا : « ستعرضون لأخطار شديدة ، وأوطا الألغام التي بثها الثوار في كل مكان فقد تعثرون بأحدها . وثانياً أن الثوار لا يتثبتون ، فيسرون سيارة تمر ولن يعرفوا أنكم فرنسيون فيصوبون إليكم الرصاص فهم قطاع طرق . » بمّ نجيب عليه ؟ قلنا له في وجل إننا نقصد أن نرى آثار دلف القديمة . ولكننا لم نطل الكلام في ذلك فقد أحسب . . . أن في ذلك ما يصدمه وما يغضبه ؛ إذ يرى بعض المحظوظين مثلنا يتزهون ويسبحون في وقت يعرض فيه الناس حياتهم للموت في الحرب الأهلية . ثم تكلمنا عن الموقف العام . ولم يخف علينا — دون أن يقول لنا وجهته بالضبط — أنه يقود فريقاً من الجنود لتقوية جيش الحكومة الذي يقاوم الثوار في الجبال . وبين الشبان الذي يراقبونا فريق سيذهب لقضاء فترة تعليمية بمدرسة للضباط قريبة من كورفو .

وقد بد لنا هذا الشاب شجاعاً ذكياً متثقفاً (وهو يتكلم الفرنسية بطلاقة إذ تعلمها في مدارس الفرير) . وقد عبر لنا عن أسفه واشمئزازه من المهنة التي لا يد له من أن يمتنها ، ولكنه بين لنا ضرورتها لأن الثوار في نظره لا يدينون بشئ من الوطنية ، ولكنهم شيوعيون باعوا أنفسهم لموسكو والاستعمار الروسي ، أو لأنهم بكل بساطة قطاع طريق . ولما سألتاه عما يراه أو عما يرجوه في سياسة الحكومة الجديدة ، وعن رأيه في قرار العفو الذي أصدرته ، قال لنا بلهجة تم عن السخرية : إنه لم يلزم لسوفوليس أكثر من أربع وعشرين ساعة لتذهب آماله . فمن المؤكد أنه لن يستسلم أحد من الثوار ، إما تعصبا أو خوفاً من الانتقام ؛ فهو لذلك يائس . وقال لنا

بمرارة إن الشعب اليوناني يحقد على الانجليز لأنه يعدّم مسؤولين عن تلك الحال (بسبب موقفهم المتناقض) ، وأنه يتعلّق بالأمريكيين تعلق الغريق بالشّمام . وبلغ به الأمر أن يقول هذه العبارة الشيعة : « إننا نرجو أن تأتي وشيكا الحرب العالمية الثالثة . » فإذا نستطيع أن نقول لهذا الشاب الذي يسير للقاء الموت والذي يذهب إليه يائساً ؟ لقد رجونا له ، رغم كل شيء ، حظاً سعيداً ، وتركناه بعد أن عبّرنا له عن حبنا لليونان وعن رغبتنا في أن يعود إليها السلام .

نحن الآن في منتصف الليل . هاهي ذى أنوار ميناء إنييا الصغير . أنزل إلى الأرض ؟ لقد برد كلام ذلك الشاب حماسنا لرؤية الآثار . وسيقول لنا ب... فيما بعد إنه فكر أن نواصل الطريق إلى مكان أكثر أمناً . ولكننا قررنا رغم كل شيء محاولة القيام بتلك المخاطرة . ولكن أيسمح لنا بالمرور ؟ على رصيف الميناء ترسم أشباح الجنود ورجال الجندرية . وما كدنا نضع أقدامنا على الأرض حتى أشار لنا ضابط من « الجندرية » بأن نبقى بعيدين . إنه سيفحص حالتنا عما قليل . وبينما نحن في انتظار تكرمه علينا بذلك ، أرسل الله لنا العون في صورة فتى جذاب وجدنا بسرعة وقال لنا إنه مرسل من قبل زملائنا في دلف ليوصلنا في اليوم التالي بالسيارة إلى المعبد ، وأخبرنا أيضاً أنه حجز لنا ثلاثة أسرة بأحد فنادق تلك المدينة الصغيرة . لقد نجونا . ثم رأيت ب... يخاطب شاباً أمرد باحترام عظيم ، وكان ذلك الشاب يبدو لي قليل الخطر فسألت ب... : « من هذا الشخص ؟ » فأجابني باختصار : « إنه شخص يحمل بندقية . » وفهمت . . . أنه شاب من « المليشيا » التابعة للجيش النظامي . وأثناء ذلك كان ضابط « الجندرية » قد انتهى من فحص حالة المسافرين الآخرين ، فاقترب منا وسمح لنا أن نذهب لنتنام . وسيذهب ب... غداً لمرويته قبل سفرنا . يا للعجب ! يظهر أنه على صلوات طيبة مع دليلنا الآتي من منطقة الشوار . ولكنه عجب لن يتقاضى .

لم نكف منذ أقمنا عن إبداء عجبنا لـ ب... من وجود فنادق ومطاعم ملائمة في كل مكان باليونان ، والآن مُر ب... في أعماق نفسه لأنه سيرينا في هذه الرحلة أسرة لا يستطيع النوم بها وأطباقاً لا تؤكل ، وهي أسرة وأطباق الفنادق اليونانية الحقيقية . ولكن خاب ناله ؛ إذ يجب أن نقول : لئن كانت

غرفنا بسيطة بساطة غرف الرهبان . فانا لم نر بها أية حشرة تضايقتنا أثناء ليلتنا القصيرة ، وهكذا تمنا في فراش نظيف . لقد استفادت اليونان كلها من تطهيرها بمادة د.د.ت. وفي هذا على الأقل نعمة جنوها من وجود الامريكين . حقا لقد كان الماء غير كاف ، ووسائل الراحة لا وجود لها . كما أن قطان هذا المنزل لم يكفوا طول الليل تقريبا عن الكلام وإثارة الضوضاء . على أن هذه مصائب هينة . وفي اليوم التالي كنا على استعداد « لاختراق الخط » بعد أن استرحنا .

الثلاثاء ٣٣ : تم ذلك الاختراق بكل سهولة . ذهب ب . . . لرؤية ضابط الجندرية ، فقال له : لا ! « لا أستطيع منعك من الذهاب إلى دلف بعد أن سمحت لك السلطات في أثينا . ولكني لست مسئولاً عما يحدث لك . فليست هناك سلطة حكومية ولا أية سلطة أخرى . أرجو لك حظا سعيدا . » ورحلنا وفي صحبتنا مسافر زائد ، هو أحد الأطباء ، ربما كان يريد أن يعود مريضا في كريسو أو في دلف . (علمنا فيما بعد أن الثوار قد اختطفوا زوج هذا البائس ولم يعيدوها إليه إلا بعد أن دفع فدية كبيرة .) وصعدنا فاذا نحن في أجمل غابة زيتون رأيتها في حياتي . إنها أشجار الزيتون العتيقة التي تنمو في ضيعة « الله » والتي ترفع عنها إيشين Eschine طويلا في سالف الزمن . وهي تملأ كل جنبات السهل المقدس ، وإذا رأيتها من دلف أبصرت فيضها من الحضرة الداكنة ، يسيل من سفح الجبل حتى ساحل البحر . وتوقفنا قليلا في كريسو ، فغادرنا الطيب دون أن يقول لنا كلمة واحدة بل لم يكذب يشكرنا . أما زلنا لدى الحكوميين ؟ أم هل بلغنا الثوار ؟ لا أدري ! فما سألنا أحد ولا أوقفنا أحد . وسرنا بضعة كيلومترات ثم اخترقنا قرية دلف . وأخيراً وصلنا المكان القديم ، فألفيته أعظم وأروع مما كنت أنتظر . وقد أثارت الإقامة بدلف في نفوسنا عواطف لا علاقة لها بالعلم أو الجمال فقد أتاحت لنا أن نكمل معلوماتنا عن الموقف السياسي الراهن في اليونان ففي مساء وصولنا حضرلنا حين كنا نتمدد لفسترخ من عناء اليوم ، رسول من قرية دلف ، وسألنا أنوافق على استقبال وفد من الاندرايس يرغب في محادثتنا بعد العشاء ؟ فوافقنا طبعاً . وكان زوارنا ستة : خمسة من الجنود وواحد من المدنيين .

وكان هذا المدني القوميسير السياسي للقرية ، وهو في الخمسين من عمره ، يتم رأسه عن الذكاء والصلابة ، وفي وجهه علائم الصراحة ، ولكن في كلامه حذر واحتياط . وكان من البين أنه الرئيس الحقيقي . وبقي اثنان من الجنود وقوفا يخرجون ويدخلون ، ثم أسرها الرئيس بالخروج . ولم أدر ما السبب ، وحسبت أنه أرسلهما ليلحقا بزملائهم . ولكنه قد كان في الواقع أمرها بحراسة ما حول البيت حتى لا تفاجئهم زيارة غير منتظرة من قبل خصومهم ، وهذا أمر بعيد الحدوث ولكنه محتمل على كل حال . وجلس الثلاثة الآخرون في دائرة معنا . وبدأ الحديث ونحن ندخن السجائر ونشرب نبيذ « الرتسينا » *resiné* في صحة الجمهورية والديمقراطية وكان الحديث هادئا . ولم يتكلم إلا اثنان : الرئيس السياسي وهو رجل مقتصد في كلامه لا يتدخل إلا ليصحح عبارة أو يزيدها دقة في التعبير . أما الرئيس الحربي فهو شاب في الثلاثين من عمره تقريبا ، وجهه تقي الملامح يدل على العزم ، كلامه مؤكد ، عنيف أحيانا ولكنه سيطر على نفسه على كل حال . وصمت الآخران ، ولكنهما كانا يصغيان بلذة إلى كلام رئيسهما . وكان أحدهما شاب حدث مغضن الوجه كالشيخ ، يلبس طاقية فوق شعره العجيب المذهب . لم تكن ملامحه مقلقة ولكنه كان يحمل على فخذه « ترليوزا » ألمانيا وهو مملوء بالرصاص بلاشك . وكنت أنظر في قلق إلى ماسورته الموجهة ناحية المائدة التي تجلس إليها وأما الآخر فكان له رأس فلاح بدیع . لم يكن يرتدى ملابس الجنود ولكنه كان يلبس سترة من جلد الخروف ، ومنطقة وحزاما مليئا بالرصاص . وكانت بندقيته بين رجليه . وكان ب (وهو شاب من أعضاء المدرسة الفرنسية ، يتكلم اليونانية الحديثة بطلاقة) يتبع الحديث في سر ، ويتدخل كثيرا ، ولكنه كان يعجز أحيانا عن فهم بعض ما يقال . أما أنا فكنت أصغى أذني ولكني لم أكن أفهم شيئا تقريبا . ومن وقت لآخر كان يترجم لي أحد زملائي الحديث ترجمة سريعة مما أتاح لي أن ألتصيح الحديث بعض الشيء . كان أولئك الرجال قد طلبوا لقاءنا لا ليسألونا ولكن ليعقدوا لبعض الأجانب المسافرين مؤتمرا صحفيا بكل ما تدل عليه هذه الكلمة . كانوا يكلمونا في ثقة وود . ذلك لأنه كان من المفهوم لديهم (وكلام ضابط السفينة يؤيد ذلك) أن كل فرنسي هو « رجل من اليسار » . كان الرئيس العسكري يتلو علينا درسا محفوظا

ولكنه يقوله باقتناع وتأثر . وكانوا يريدون قبل أن يقنعونا أن يؤكدوا لنا أنهم يونانيون لا بلغار أو يوغسلاف ، وأن يدلونا على الصورة التي يعتقدون أن ذلك الصراع المحزن سينتهي إليها . وبعد أن أكدوا لنا أنهم غير راغبين في هذا القتال ، كما سبق أن قال لنا الضابط الحكومي الشاب على ظهر المركب ، قالوا إن عفواً عاماً قد ينهى تلك الحرب الأهلية ، ولكن ذلك العفو لا بد أن يكون عفواً حقيقياً ، أى عفواً منظماً ، لا تصدره أحزاب اليمين المتطرفة ، ولا يصدره سوفوليس الذي ليست به أية ثقة ، ولكن تصدره الأحزاب « التي تمثل الشعب اليوناني » أي أحزاب اليسار باستثناء من يتولى الحكم منهم اليوم . وقالوا لنا أيضاً إجابة على أسئلتنا : إنهم جمهوريون ، وأن الكثير منهم شيوعيون ولكنهم لا يمنعون أهداً من الحكم حتى الملك ، ذلك إذا ثبت حقا في انتخابات حرة أن الشعب يريد أن يقيه على رأسه وأضافوا إلى ذلك أنه ليس لهم أية ثقة بالحكومة الراهنة ولا بالعفو الذي اقترحته عليهم لأنهم ما زالوا يذكرون في هلع « حوادث ديسمبر » (١٩٤٤) والخيانة التي كانوا ضحيتها هنالك ، وأن الحكومة بين أيدي الدول الأجنبية ، وأنها تأتمر بأمر الاستعمار الأمريكي

وأنصتنا لذلك الكلام دون أن نميل إلى أي جانب بل دون أن نحاول إفهامهم وجهة نظر خصمهم (وذلك هو الموقف الذي وقفنا مع الضابط) . ولكن كيف لا يستشعر المرء رحمة عظيمة وهو في مواجهة هؤلاء الشبان المتحمسين ، المقتنعين ، المخلصين ، الشجعان ؟ هم أيضاً يقاتلون عن اقتناع ، هم أيضاً يقاتلون وعلى رؤوسهم الموت ؛ هم أيضاً يستشعرون ما في هذه الحرب العائلية من شناعة ؛ هم أيضاً يفهمون فهماً غامضاً أنهم ليسوا إلا يبادق في رقعة هذا الشطرنج العظيم . ولكنهم يرون أن قدراً لا يدفع يرج بهم في هذا الصراع ، وهم يخوضونه تدفعهم تلك الشجاعة الهادئة التي يبعثها اليأس . ثم تركونا في ساعة متأخرة من الليل بعد أن شربنا معهم نخب الحرية وبعد أن رجونا لهم أن يهب الله لهم الشجاعة والحظ السعيد . ولكن الغم يعترض قلوبنا . فهؤلاء الذين يغادروننا قوم قضى عليهم بالقتل . فإلى أين تقودهم هذه اللعبة القاسية ؟ وفيم يؤملون إذا استثنينا « تلك الحرب العالمية الثالثة » التي يتمنونها في صميم قلوبهم كما يتمناها خصومهم ؟ إن الشتاء يقترب

وسيضطروهم لمغادرة معاقلمهم في الجبال . فماذا هم صانعون ؟ إنهم يشيعرن القلق والفرع أحياناً في القرى التي يهبطونها ليلاً . وهم يضطرون الفلاحين للانضمام إليهم . ولتقديم الطعام لهم من زراعاتهم الضعيفة . ثم يأتي رجال الجندرية في اليوم التالي فيحققون ويسجنون أولئك الذين اتصلوا بالشوار . . . وهذا ما قاله لنا كروسو حارس الآثار الذي عين الشوار أخاه منذ قليل عمدة لاحدى القرى فلم يستطع أن يرفض . ولكن سيأتى يوم يرسل فيه الحكوميون حملة انتقامية إلى هذه الأماكن ، وعندئذ سيضطروا إلى ترك أرضه وامراته وأطفاله . . .

الأربعاء ٢٤ : استيقظنا مبكرين لنتمكن من رؤية المكان بالتفصيل ، ثم ركبنا السيارة حوالى الساعة الحادية عشرة لنصل أثينا قبل الليل . لم يبق أمامنا إلا مائتا كيلومتر . ولكنه ياله من طريق ! . . . ورغم ذلك فان السيارة تظمئننى ؛ فهي « لنكولن » قوية جديدة من الطراز المكشوف وقد تكوننا فيها : عشرة مسافرين من بينهم احد أهالى دلف ، اتخذ مكانه على سلمها رافعاً علماً أبيض ، ومن بينهم أيضاً امرأة من دلف توسلت إلينا أن نوصلها إلى العاصمة لتعالج ولدها المريض ولم يكن يد من إجابة رجائها . وبدأت الرحلة بدءاً حسناً . والطريق جميل حتى قرية أراكوفا حيث وصلنا وشيكا بعد أن حيننا كاستالى ومارماريا ، وبعد أن سرنا حذاء سفوح البارناس المترجة . ويتكلم الدليل الأزرق عن هذه القرية كما يتكلم عن موقع جميل جدا . وهي حقا معلقة فوق هوة وفي وسطها قبة مبنية على صخرة منعزلة . فاذا نظر إليها من بعد بدت ظاهرة الجمال . فإ إن اخترقناها حتى شعرونا بوحشة عظيمة : منازل محترقة ، محطمة ، منهوبة مكسرة .

صمت الوحدة يعم المكان . ليس هناك إلا عدد قليل من السكان على أعتاب أبوابهم يرقبوننا ، وفي نظراتهم مزيج غريب من التطلع والتهديد والقلق . ووقف سائقنا في الميدان الرئيسى ، وتفاوض طويلا مع بعض الناس . ولم ينبس بكلمة وتركنا له الكلام . وأخيراً مررنا . واخترقنا الميدان الرئيسى للشوار . ثم سرنا إلى ليفاديا أهم مدينة في بوييسى Béothie حيث عدنا إلى الحكوميين ودخلناها بعد ساعات دون أية صعوبة . هناك عدد كبير من الجنود مجتمعين أمام مدخل المدينة ، ولكن يبدو عليهم عدم الاهتمام بسؤالنا رغم

محيثنا من منطقة الثوار. وهكذا نصل ببساطة إلى وسط المدينة المزدحمة، حيث ينزل فلاح دلف الذي وضع علمه داخل العربة، إذ لم تعد له قيمة، ثم دخل حظيرة سيارات... لم نسأل إلا عند مخرج ليفاديا. أوراقنا مستوفاة. ومرّ هذا التفتيش كما مر كل تفتيش آخر تعرضنا له قبل وصولنا إلى العاصمة، بلا صعوبة حقيقية. فكلمات «المدرسة الفرنسية» تلوح كأنها كلمة سحرية تفتح أمامها مغاليق الأبواب. وليست جنسيتنا الفرنسية هي التي تمنحنا كل هذه المزايا في هذه المرة، بل كان يمنحنا إياها كوننا علماء آثار. فأولئك الحمقى الذين يقضون وقتهم - في مثل هذا الزمن - في رؤية أحجار قديمة، لا بد أن يكونوا مسالين... ونحن حقا مسالمون! ستستمر رحلتنا بلا عائق ولا حادث حتى أتينا حيث نصلها عند هبوط الليل.

برنارد جوبورن

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده